دراسة في طبيعة المجتمع العراقي "انموذجاً"

صناعة الطرائف عند الدكتور علي الوردي

نبيل العطية

عُرف باحثاً جاداً وعالماً مثابراً، ووصف انه "ابن خلدون العراق" ولم تكن مسيرته محفوفة بالرياحين ، بل كان الطريق نحو المجد العلمي جبلاً يثقل صدره، بيد انه لم يستسلم ، واخيراً انتصر في معركة الحياة الثقافية، فكانت كتبه إضاءة لمجتمع، وتنويراً متواصلاً في زمن انطفاء النور وشيوع الظلام.

لقد اثمرت سياحته الفكرية في علم الاجتماع الفسيح ، فرضيات ترقى الى مستوى التنظير، فكانت (ازدواجية) الشخصية و(البداوة والحضارة) و(التناشز الاجتماعي) انطلاقات مهمة في عالم البحث، والتأسيس لمنظورات اجتماعية.

عصامية الدكتور علي الوردي الجادة، وانكبابه على التأليف منذ كتابه الاول "شخصية الفرد العراقي" الصادر سنة ١٩٥١ حتى كتابة "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث"، بأجزائه الثمانية بين سنتي ١٩٦٩ . ١٩٨٠ دليل ساطع على مستوى هذه الجدية وتوهج الروح التأليفية فيه، بيد ان هذه النزعة الجادة لم تكن تخفي روح الطرافة السارية في مؤلفاته ، لذلك لانعدم ان نجد في تضاعيف فصوله مجموعة من الطرائف التي تضفي على اسلوبه جمالاً أخاذاً وتخلق حالة من التفاعل بينه وبين قرائه. الطرفة عند الوردي ذات هدف يسعى الى تحقيقه عبر ما يعالج من موضوعات ، وهي ليست حشواً وانما هي جزء من البنية الاساس للنص، وربما فيها دليل عملي على صحة منظوره الاجتماعي ، وقد يعلق ببضعة سطور بعد إتمامها بإسلوب شائق واذ ذلك تبدو الطرفة طرفتين في آن واحد!

من مجموعة كتبه . المثيرة للجدل ، اخترت كتابه "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" المعاد طبعه سنة ٢٠٠٥ بصفته انموذجاً واحداً يعبر عما ينطوي عليه هذا الباحث الأصيل من ميل الى الظرف والدعابة وماتشتمل عليه كتبه من افانين الظرف واللطائف على الرغم من قسوة الايام، وجور السلطة، وتكالب سيل الممنوعات عليه.

أنواع الطرائف

استطيع ان اقسم طرائف الدكتور علي الوردي على الانواع الآتية:

اولاً :

١. طرفة المشاركة: والمقصود بها تلك التي يكون هو نفسه جزءاً من مشهدها الطريف.

العصبية الجندية

مثال ذلك ما نص عليه ص ١٧٧: "حدث لي في عام ١٩٣٩ ان كنت مسافراً مع زملاء لي من الطلاب الى بابل، وفي القطار تشاجر احد زملائي مع احد الجنود وصفعه على وجهه.

وشاء سوء الحظ ان يكون القطار مملوءاً بالجنود، فانتشر بينهم الخبر، وتجمعوا يريدون الأخذ بثأر زميلهم منا، بلا تفريق ، كان كل جندي يحاول البحث عن أي طالب ليعتدي عليه، ولكن القدر ساعدنا في اللحظة الاخيرة فنجونا بجلودنا ، واطلقنا سيقاننا للريح لا نلوي على شيء..

كان الجنود من قبائل مختلفة، ولكن "العصبية الجندية" هي التي سادت بينهم في تلك الساعة، فأصبحوا كأنهم قبيلة واحدة تجاه قبيلة اخرى معادية لهم هي قبيلتنا نحن الطلاب المساكين!

طعام وحسرة

٢ . وماذكره ص٢٦٩ "عندما كنت في الولايات المتحدة لاحظت ان الناس هنالك يفعلون عكس ما نفعله نحن تجاه الهدية ، فالفرد منهم اذا اهديت اليه هدية، مهما كانت تافهة ، وجب عليه ان يبدي فرحه بها ويذكر مبلغ اهميتها له انه يقول ذلك من باب المجاملة ، وربما رمى الهدية بعدئذ في سلة المهملات.

وهو عندما يدعى الى طعام لايتوقع من صاحب الدعوة ان يلح عليه في تناوله، حدث لي ذات مرة، في بداية عهدي بالحياة الامريكية، أني زرت بيتاً وكان صاحب البيت يتناول عشاءه فدعاني الى مشاركته في الطعام.

والواقع انني كنت اذاك راغباً بالطعام ، ولكنني كنت اتوقع من صاحب البيت إلحاحاً وإصراراً حسبما اعتدت عليه في العراق ، فأخذت اتمنع وأتعزز من غير جدوى ولم احصل منه، إلاّ على السكوت، وقد فاتني من جراء ذلك طعام لذيذ"!

باء السكران بالخسران

٣. ومن هذا الضرب ما ورد ص٣٣٣/ الحاشية: "حدث لي ذات مرة انني كنت جالساً في احد المراقص بجانب رجل سكران فأرسل الرجل هدية الى راقصة ، وظنت الراقصة انني انا الذي ارسلت الهدية، فمنحتني بعض بسماتها ،باء السكران بالخسران"!

ثانياً :الطرفة الهروية

وفّر الاختلاط بطبقات المجتمع العراقي كافة فرصاً وفيرة للوردي لكي يتزود بالكثير من الطرف المنقولة شفاهاً عن الناس من ذلك ما جاء ص٢٦٧:

الوير

"من الطرائف التي تروى ان المرحوم ضاري شيخ زوبع كان جالساً ذات يوم في احد مقاهي الكاظمية وسمع الجالسين يصيحون (وير) مرة بعد مرة كلما جاء الى المقهى احد اصدقائهم ، ولم يكن الشيخ يعهد ذلك من قبل لقلة ارتياده المقاهي، فسأل عن معنى (الوير) فلما عرف المقصود منه هتف يخاطب ساقي المقهى: "انا اخو فاطمة وروز على الحاضرين كلهم "وقد دفع فعلاً حساب الجميع.

قال العاني

ومما نص عليه ص ١٨٩: "تروى في العراق نكتة تشير الى العداء المستحكم بين اهل "راوة وعنة" ، وخلاصتها ان رجلاً من اهل عنة، كان يقرأ كتاباً قديماً وكان يعثر فيه بين كل حين وآخر على عبارة (قال الرواي) فغضب الرجل من ذلك وأسرع الى القلم ليشطب به اسم (الراوي) ويضع مكانه اسم (العاني) فصار الكتاب مملوءاً بعبارة (قال العاني)".

بطة!

ومن ذلك قوله ص ٢١٧: "حدث مرة ان قال احد الحضر في مجلس بدوي انه يستحم في السنة مرة أو مرتين، فدهش الحاضرون من ذلك وقالوا له: "هل انت بطة"؟!

حزمة شوك

ومن هذا النوع ما أورده ص ٣٥٤ في سياق حدة الوعي عند العراقيين: "يروى عن رجل انه اثناء الحرب العالمية الاولى غضب من ولده حين رآه مولعاً بأخبار المعارك التي كانت تجري يومذاك في اوروبا، فقد جاءه ذات مرة وهو فرح يهتف قائلاً: "سقطت وارشو"؟ ، فاراد الاب ان يلقنه درساً فأخذ بيده وجاء به الى بائعة شوك في السوق حيث قال لها: "هل تبيعين حزمة الشوك بخبر سقوط وارشو" فلم ترض المرأة بذلك طبعاً، عند ذاك قال الاب لابنه وهو يعظه: "انظر قيمة الخبر الذي جئت به، فهو لايساوي حزمة شوك"!

الاعتزاز بالشوارب

ومن هذا اللون ما جاء على الصفحة ٢٨٢ :" هناك قصة طريفة تروى عن احد الرجال المعتزين بشواربهم، وهي انه اراد شراء بضاعة من السوق ثم تحسس في جيوبه فلم يجد فيها مايكفي لدفع ثمنها ، فانتزع شعرة من شاربه وقدمها لصاحب الدكان ضماناً له، وقبلها منه صاحب الدكان من غير تردد واعطاه البضاعة بكل سرور، اذ هو كان واثقاً بأن الرجل سيدفع دينه ويسترجع الشعرة على كل حال. وقد كان هناك بالقرب من الدكان رجل آخر يشهد الحادثة فأراد استغلال شواربه ، كما فعل الرجل الاول، فانتزع منها بضع شعرات وقدمها لصاحب الدكان، ولكن صاحب الدكان رفض قبولها، لأنه كان خبيراً بأقدار الرجال ويستطيع ان يميز الشوارب (الاصلية) عن غيرها".

ثالثاً :الطرفة المقتبسة :

١. لم يكتف الوردي بنمطي الطرفة المار ذكرهما، بل كان "يقتبس" من غيره ما ورد في المراجع التي اعتمد عليها، بما يتوافق مع طروحاته ، واستنتاجاته.

غزو الضعفاء

من ذلك مانقل عن كتاب (البادية) لمؤلفه عبد الجبار الراوي ص٦٣ عن فرحان باشا" وهو الجد الأعلى لقبيلة شمر المعروفة الآن في العراق، انه نزل ذات يوم في قرية المشاهدة الواقعة في شمال بغداد، فرأى رجالها ضخام الاجسام، فسألهم: هل تغزون؟ فأجابوه: انهم لايستطيعون الغزو، ولم يتخذوه صنعة لهم.فقال لهم: "اغزوا من هم أطكع منكم".. وكان قصده انهم اذا كانوا ضعفاء لايقدرون على الغزو فليغزوا من هو اضعف منهم.

تجويز الرشوة

ومنه ما اقتبسه الوردي عن السيد محسن الأمين في كتابه (اعيان الشيعة) المنشور ص١٣٤ : انه ، في عام ١٣١٩ هـ الموافق لعام ١٩٠١ "سافر من العراق الى الشام فمر في طريقه بمدينة الرمادي، وهنالك اخذ مأمور النفوس يعترض طريقهم ولم يتركهم ، الا بعد ان دفعوا له الرشوة ، ثم جاء اليهم المأمور يعتذر اليهم قائلاً: "لاتؤاخذوني، فإن دولتنا ترسل المأمور وتقول له ارتش واخذ اموال الناس وافعل ما تشاء ، ومعاشي في الشهر خمسة مجيديات، فهل تكفيني ثمن التتن ، فإن لم اتعلق بكم وبسواكم ما اصنع؟! "قالوا له: لا نؤاخذك"!

ويقول السيد محسن انه اثناء تجواله ببغداد مر بالبنك "الشاهنشاهي" البريطاني فرأى على بابه قطعة كتب عليها اسم البنك وامامها اثنان من الهنود ولما مر بالبنك في وقت آخر لم يجد القطعة، وتبين له انهم كانوا يضعون القطعة نهاراً ثم يرفعونها ليلاً لكي لايسرقها اللصوص"!

قصة جمال باشا

ومن ذلك ماسماه (نكتة ختامية) وردت ص ١٤٠ وقد اختتم بها مادة الفصل الخامس "العراق في العهد العثماني" مقتبساً نصه من كتاب "العراق بين احتلالين" للمرحوم عباس العزاوي ."بعد ان انتقل ناظم باشا من بغداد عينت الدولة جمال باشا والياً مكانه" وكان هذا الوالي الجديد يشبه سلفه بثقافته الحديثة وهمته الاصلاحية الى حد غير قليل، ولكن الناس ابغضوه ، لأنه كان يخالط الجالية الاوروبية في بغداد ويشترك معهم في حفلاتهم الراقصة: فقد كان يسكن في قصر على دجلة قرب الباب الشرقي وهو القصر الذي كانت فيه وزارة الشؤون الاجتماعية منذ عهد قريب، وكان يسكن بجواره مدير البنك العثماني وهو رجل انكليزي، فكان جمال باشا يرقص مع زوجة هذا الرجل احياناً، وصار من جراء ذلك موضع الذم والتقبيح في نظر الأهالي ، قال عنه احد كتاب ذلك الوقت مانصه: "اشتهر بالمخازي ، ورقص الدانص مع مدامة مدير البنك العثماني". وخلاصة القول: ان الحياة الفكرية الصارمة التي عاشها الوردي ، لم تكن تمنعه من البحث عن نوافذ لإطراف نصه، وتهيئة مستزمات تشويق القارئ وتقوية الادلة الى (المرامي) التي سعى الى تحقيقها عبر مباحثه الاجتماعية والنفسية الرصينة، فكانت طرائفه بحق ضرباً من الترويح عن النفس، والتثقيف لها في آن واحد!

الكتاتيب

محسن الجيلاوي

مفردها (الكتّاب) وهو موضع تعليم الكتابة..والكتاتيب التي وجدت في العهد العثماني وما بعده ما هي الا إمتداد لأسلوب التعليم القديم عند العرب وقد أكدت الكتب السماوية أهمية التعليم، وفي القرآن الكريم أكثر من آية تخص التعلم وفضل العلم كذلك وردت أحاديث نبوية كثيرة للرسول الأعظم (ص) وأهل البيت (ع) والصحابة والفلاسفة المسلمين التي تحث على التعليم والعلم .

كانت المساجد ودور العبادة وبعض الاماكن الخاصة والعامة هي المؤسسات العلمية عند العرب. وكان معلمو (الكتاتيب) في صدر الاسلام يقومون بتعليم الصغار والعرب المسلمين منذ زمن مبكر ، واشترطوا في معلمي الكتاتيب شروطاً عديدة منها (أن يتنزه في ساعات فراغه عن امتهان المهن الحقيرة كالحجامة والدباغة وما الى ذلك وأن ينظف جسمه بإزالة الأوساخ وتقصير الأظفار وأن يكون اشتغاله بالتعليم في سبيل الله تعالى لإصلاح ناشئة المسلمين لا طمعاً في مال أو جاه وأن يبتعد ما أستطاع عن الحكام والملوك وأن يكون ذا عناية بالعلوم المفيدة ويغفر لتلاميذه خفاياهم ويعذرهم عن هفواتهم وأن لا يدرس وهو منزعج النفس، فإن ذلك مضر بنفسه وطلابه وأن لا يعلم أحداً ما لا يتحمله ذهنه او سنه وان يقول لا أدري اذا سئل عما لا يعرفه وغيرها من شروط وكذلك اشترطوا على الطالب أيضاً ان يجد في الدراسة وان لا يعاشر غير اخوانه المجدين من الطلبة وان ينظر الى استاذه بإجلال واحترام وان يسبق استاذه في الحضور الى المكتب او الحلقة وأن يلقي بسمعه الى الشيخ وغيرها من الشروط الواجب توفرها في طالب العلم .

ونظم أمر هذه الكتاتيب في زمن الدولة العباسية بصورة وشكل فني فائق لاهتمام الدولة بأمر التعلم وما اليه من الشؤون العامة. من جهة أخرى يلاحظ ان معلمي الكتاتيب كانوا منقسمين الى قسمين منذ زمن الدولة الأموية، القسم الأول هم معلمو كتاتيب العامة الذين كانوا يهتمون بتعليم أبناء الطبقة المتوسطة وسواء الشعب، والقسم الثاني معلمو ابناء الطبقة العليا والأمراء والاثرياء وكان لهؤلاء المعلمين اسم يمتازون به هو (المؤدبون).

إن الغرض الأساسي من وجود الكتاتيب في العهد العثماني هو تحفيظ القرآن للصبية .. أما القراءة والكتابة فهما وسيلتان تساعدان على حفظه، والقائم بهذه العملية يسمى (الملا) ، تبدأ الدراسة في الكتاتيب بعد سن السادسة، وعلى الصبيان أن يجلبوا معهم القرآن الكريم او احد اجزائه وعادة ما يكون (جزء عم) مع ألواح مثل الصفيح الناصع تخط عليه الحروف ثم تمسح عند الحاجة بمساحة من الخرق مثبتة بخيط في أسفل اللوح كذلك عليهم أن يجلبوا محبرة وبعض أقلام القصب. ويبدا تعليم الصبيان عادة بسورة (قل أعوذ برب الناس) وتبدأ تلك القراءة بطريقة (التهجية) ويبدأ كما هو معروف بالحروف الهجائية ثم الحروف المحركة بالحركات المختلفة ثم بكلمات (أبجد. هوز. حطي كلمن. سعفص. قرشت . ثخذ . ضظغ) وقسم يسمي الحركات باسمها والآخر بأسماء فارسية (تبيش) والفتحة (زبر) والكسرة (زير).

ومهما يكن من أشياء فالدراسة في الكتاتيب تعتمد على التكرار الممل والقراءة الصائتة ، اذ يتحتم على الطالب القراءة بصوت عال ، فكان كلما ارتفع صوته كان ذلك مبعث إرتياح وتقدير من قبل الشيخ.

وعندما ينتهي الطالب من مرحلة التهجئة ينتقل الى مرحلة القراءة السريعة من دون تهجئة ، وتسمى كما اصطلح عليها القراءة السريعة أو (روان) وهي كلمة فارسية معناها (إستقامة). أما جلوس الطلاب فيكون على (حصيرة من القصب) ، فالمتقدمون بالقراءة والكتابة تكون مقاعدهم امام الملا والمبتدئون يكون جلوسهم خلف المتقدمين ويساعد إعداد الشيخ مساعد يسمى (الخلفة) يقوم بالاشراف على الطلبة الجدد وتحضير (الفلقة) والخيزرانة الى (الملا) ليقوم بمعاقبة الطالب المسيء أو (الوكح) أو الذي لم يؤد واجبه.. وهناك أساليب وطرق أخرى للعقوبة تختلف بين شيخ وآخر.. وهناك واجبات ومهام أخرى موكلة للخلفة يقوم بها خاصة عند غياب الشيخ .

كان الملا يشطب بعض الحروف الهجائية في أعلى السطر.. ثم يشرع الطالب بعد ذلك بتقليد الحروف المكتوبة على نفس الطريقة وكان الدوام يبدأ في الصباح، وعند أذان الظهر يقوم للصلاة وينتهي ، أما الغداء فكان كل طالب يجلب معه (لفة) من البيت أو يشتري شيئاً ، وفي شهر رمضان يجبرون على الصيام !

كان أهل الطالب يعملون الحلوى والولائم كلما وصل ولدهم مرحلة معينة وإذا ختم القرآن الكريم يجرى له احتفال بهيج يشترك فيه الصبيان من أعضاء حلقته الدراسية وآخرون من ابناء المحلة يرتدون ثياب الأعياد ويكّونون موكباً يتقدمهم (الخلفة) وآخر يحمل القرآن الكريم على رأسه ملفوفاً بالحرير المزركش المذهب مع مجموعة من حملة الرايات الدينية ثم مرحلة الطبول ويردد الجميع (الدعاء) الذي يتلوه (الخلفة) بصوت عال :

الحمد لله الذي تحمدا
حمداً كثيراً ليس يحصى عددا
كلم موسى واصطفى محمدا
وأنزل القرآن نوراً وهدى
على نبي أسمه محمدا

الى آخر الدعاء وفي نهاية كل قفل يرد عليه بقية الموكب (آمين) ويدور الموكب في الشوارع والمحلات ثم يعود الى دار والد (الخاتم) فتستقبلهم النسوة بالأهازيج والتهاليل وتمد مائدة كبيرة عليها أنواع الأطعمة والحلوى ويقوم والد الخاتم بتلبيس (الملا او الشيخ) جبة جديدة من القماش وصرة تحتوي على مبلغ من النقود وهدايا أخرى ... وبطبيعة الحال أن مثل هذه الاحتفالات لا تقام لأبناء الفقراء لأنهم لا يملكون ما يصرفونه على مثل هذا الحفل .

ان الدراسة في الكتاتيب تنتهي عادة بعد ختم الطالب للقرآن الكريم والحصول على مبادىء العمليات الحسابية الأربعة أو حفظ بعض الشيء من الشعر ، وهذا يقتصر على طريقة الملا أو الشيخ واسلوبه التعليمي ، كان الأهالي يرسلون أبناءهم الى المدارس الحكومية خاصة بعد انتهاء الاحتلال العثماني رغبة في إتمام تحصيله العلمي بعد أن تجاوز العاشرة من عمره.

ان هذه المهنة الشريفة (الكتاتيب) انتهت في العراق بعد ان انتشرت المدارس الحكومية والأهلية على الرغم من اشاعة أصحاب هذه المهنة بان الذهاب الى المدارس هو من أعمال الشيطان والخروج عن الملة والدين!

من المحرر

بين مؤسسة المدى وامانة بغداد مشروع تطوير بغداد الحضاري

باسم عبد الحميد حمودي

كانت زيارة الدكتور صابر العيساوي امين بغداد الى (مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون) منذ ايام مهمة على صعيد توثيق العلاقة بين مؤسسة ثقافية كبرى مثل (المدى) وامانة بغداد التي تضطلع بمهمات تطوير العاصمة واعادة بنائها حضاريا.

وكان استقبال الاستاذ فخري كريم رئيس (مؤسسة المدى) للسيد امين بغداد استقبالاً خارج السياقات التقليدية بحضور محرري (المدى) والعاملين فيها فقد تم الاتفاق بين هذه المؤسسة الثقافية والصحفية الكبرى ممثلة في شخص رئيس مجلس ادارتها وامانة بغداد وممثلة في شخص الدكتور العيساوي امينها على جملة من الامور المهمة التي تساعد على جعل بغداد الحلوة احلى وبغداد التارخية اكثر ألقاً وبغداد الحضارة مدينة زاهية بحق.

ومن هذه الاتفاقات:

تطوير شارع المطار وتحويله الى شارع نموذجي. انشاء غابة بغداد.

مدينة للحدائق وحدائق للزهور.

حديقة ثقافية ومنتدى ثقافي

حديقة للعلوم والتكنولوجيا

والاهم من كل هذا مشروع ابراز تاريخ بغداد يبدأ تجسيده من منطقة القشلة وشارع المتنبي ويسير بامتداد شارع دجلة.

اضافة الى السعي لإعادة بناء الجندي المجهول القديم في موضعه في ساحة الفردوس (كما نأمل) ، فقد كان اسم هذه الساحة ساحة الجندي المجهول قبل ان (يحذف) ذلك الجندي منها ويوضع قريباً من القصر الجمهوري.

اما العمل الاساسي الذي ندعو الى تجسيده بعد التخطيط له بدقة فهو مشروع (تاريخ بغداد) وهو مشروع ثقافي حضاري بحق جرت محاولات عديدة سابقة لإنجازه من دون ان يستمر العمل في هذا الاتجاه الذي يعيد لبغداد جزءً من ألقها الحضاري فالنية معقودة على انشاء مسارح وقاعات رسم ومكتبات ومقاه شعبية ومعارض فولكلورية ونموذج لقرية فولكلورية بغدادية وعروض ازياء ومقر خاص للعروض الموسيقية الشعبية والاوبرالية وتفاصيل اخرى تشد العراق الى بغداد وتضيء له بعض صور تاريخها القديم وجمالية عالمها الحديث.

العمل الاساسي الذي ندعو الى تجسيده بعد التخطيط له بدقة فهو مشروع (تاريخ بغداد) وهو مشروع ثقافي حضاري بحق جرت محاولات عديدة سابقة لإنجازه من دون ان يستمر العمل في هذا الاتجاه الذي يعيد لبغداد جزءً من ألقها الحضاري فالنية معقودة على انشاء مسارح وقاعات رسم ومكتبات ومقاه شعبية ومعارض فولكلورية ونموذج لقرية فولكلورية بغدادية وعروض ازياء ومقر خاص للعروض الموسيقية الشعبية والاوبرالية وتفاصيل اخرى تشد العراق الى بغداد وتضيء له بعض صور تاريخها القديم وجمالية عالمها الحديث.

ان ذلك كله ينبغي ان يغنى باقتراحات مفيدة تساعد على اعادة بناء هذا التاريخ ومن ذلك مقترحاتنا بإنشاء متحف لألف ليلة وليلة يضم كل الكتب الصادرة عن هذا الاثر البغدادي بكل اللغات ويضم ارشيفاً لكل البحوث وكل طبعات الف ليلة وليلة (المتيسرة) بالعربية واللغات الاخرى و (سينماتيك) خاص بألف ليلة وليلة يضم كل الافلام المنتجة عن حكاياتها مع محاولة لتجسد موسيقى الف ليلة وليلة وأزيائها وتنظم محاضرات سنوية عنها وعن باحثيها ومن هذه المقترحات انشاء مكتبة بغدادية تضم كل ما كتب عن بغداد من قبل العراقيين وسواهم وعمل فهارس خاصة بهذه المكتبة واصدار مطبوعات جديدة عن بغداد واعادة اصدار القديمة منها في سلسلة خاصة تضطلع بها مؤسسة المدى، فبغداد تستحق منا كل خير وطوبى لمن سعى الى طريق خيرها.

حكايات من ذاكرة الريف

الله هو العالم

حسين الهلالي

حسنة البنت الوحيدة لأمها الى جانب ثلاثة اخوان، ولاتخرج الى الحقل الا واخوتها معها او في الأقل احدهم ، كانت هي المحور الذي تدور حوله فتيات القرية ، وكن اذا خرجن للعمل في الحقول يكونّ حلقة حولها وهي تدير الحديث بلباقة ولطف ويردن عليها بحديث عن شباب القرية يصفن الشباب وصفاً دقيقاً يتناول منطقهم، رجولتهم، شهامتم، وشجاعتهم وكرمهم.

هي ترد عليهن :- هذا كلام خبيرات بكل شيء

ترد عليهاحميدة :- معقولة انت بعيدة عنهم ؟!

حسنة :- هل تشوفين بعينج آنه لااطلع ولااروح الا وخوتي وياي، اشلون بعد اشوف شباب القرية ، معناها الموت اذا اتحد ثت وي واحد منهم

قالت جميلة:- الله واكبر والكلب ماالله حك عليج؟

حسنة:- اله لكن حابسته ابين اضلوعي واخاف من كل شي !!

حميدة:- لاله، آنه اموت اذا ماترست عيني نظر من عجيل!

حسنة:- ايه عجيل ايشوفج وتشوفينه لأن كرايبج،

حميدة:- ايه هاي نعمة

جميلة:- وانتوا اتفقتوا على الزواج؟

حميدة:- ايه، للريع الجاي

اشتد العمل في الحقول لأنّ موسم الحصاد قد بدأ ، لبست حسنة ملابس العمل وشدت على وسطها بشال احمرثم اخفت وجهها بحجاب ازرق غامق وتركت مسافة لعيونها الجميلة ثم لبست الحذاء وشدت على ساقيها بقطع قماش اسود ولفت العباءة على خصرها لفاً جيداً وأمسكت المنجل بيدها منتظرةً اخوانها الثلاثة وسارت خلفهم، الأكبر يركب فرسه والأخوان خلفه يسيران ، اما القرويات الأخريات فهن خلفهم بمسافة قليلة خشية اختلاطهن مع اخوانها تحاشياً للحساسية المفرطة في الريف وحسماً لنقل كلام يخد ش سمعتهن، وصل الجميع الى الحقلوبدأوا الحصاد وهناك مجاميع بعيدة عن مجاميعهم ، قامت حسنة تجمع الزرع((الباث)) وتكدسه في مكان معين يساعدنها الفتيات اللواتي معها.

وعندما انتهى الحقل الأول حصاداً سار الأخوان الثلاثة الى منطقة يجمعون بها الحصاد ووصلوا الى هناك وخطوا خطة دائرية لتكون البيدر الأول للزرع بد أت الفتيات بنقل الزرع وعمل حسنة تقوم بتعبئته لهن.

ابتعدن ، في سيرهن عنها مسافة غير بعيدة نوعما وهي مشغولة بالزرع مر ابن الشيخ بالقرب منها وقف وناداها ، رفعت رأسها ورجعت مذهولة الى الوراء ، كانت احدى الفتيات الأخيرة لاحظت من بعيد هذا المشهد

حسنة بدأت تنهره بشدة وهددته بأن تصرخ وتنادي اخوتها

قال:- والله الموت احسنلي من حياتي اللي احمس بيهه كل لحظه عليج، ليش انت ظالمه ليش مغطيه وجهج بهاي الوصله وعيونج تجدح نار؟

قالت:- ايه تجدح نار من الغضب عليك لأن ماتخجل ولاعندك حياء، هسه اتروح لااصيح اخوتي آنه لاعرفك ولاشايفتك

قال:- لكن آنه شايفج واريدج لي زوجه

قالت :- اخسأ آنه ما آخذ واحد دنيء ودوني ابتعد عن طريقي

تحرك بالاتجاه الآخر، وعندما عادت الفتيات من البيدر بدأ الحديث الخاطئ حولها.

قالت حميدة :- ها اشكلن ؟

جميلة :- حكهه تريد ابن الشيخ

فاطمة :- لاله موهل الشكل،هاي نجره ولاتقرب لأحد

حميده :- هاي تطرد اعيون ، احم ، احم

اقتربن منها شيئاً فشيئاً ولاحظن عليها الأنزعاج والتعب والهم ووجهها المحمر و يتصبب عرقاً على جبينها وهي تمسحه بشالها،

قالت جميلة :-ها حسينه اشبيج ؟!

حسنة:- تعبانه، تعبت كلش،

فاطمة:- اكعدي وحنه انعبي الزرع ، انت اظن مريضة

حسنة :- لاماكو شي

قامت هي بعملها كعادتها وهن ينظرن اليها بريبة، حملن الزرع وابتعد ن عنها ،هي عملت مثلهن وسارت خلفهن متجهات الى البيدر

قال الأخ الأكبر:- الآن وقت الظهر وصار وقت الصلاة لزوم انروح لهلنه ، الجميع :- حلوا احزمتهم الأ هي بقيت على لثامها وكامل ملابس العمل، عاد الجميع الى القرية، وكعادتهم ذهبوا الى الحقل وتكرر هذا العمل اسبوعاً آخر بعد ذلك انتهى كل شيء. وفي القرية بدأت شائعة لقائها في الحصاد بابن الشيخ كالنار في الهشيم حتى وصلت الى مسامع اهلها فعزم الأخوان الثلاثة مع ابيهم على الشر ، ولابد من قتلها وعندما سمعت امها بذلك هربتها قبل الفجر الى قرية ثانية وصلت الى القرية في الصباح الباكر ودخلت بيت الشيخ واتجهت الى غرفة ابنته الكبرى ، وهي امرأة حكيمة اسمها آية وطرقت الباب خرجت لها ورحبت بها وادخلتها الغرفة وقدمت لها الطعام رفضت ذلك بألم

قالت آية :- اكلي وكل شي مكضي بعون الله

قالت حسنة :- لاخاله ريجي مر !

قالت آية: - انشا الله ايصير حلو ، بس تحجيلي الصد ك

حسنة:- والله خاله والقرآن هذا الجدامج اللي راح احجيه هو الصدك

قالت آية :- بعد ان اغلقت الباب ، ياالله احجي ،

بدأت حسنة تسرد الحكاية وكيف تطورت وآية تنظر اليها بتفحص ثم قامت وقالت لها :- نعم انت صادقة وهذا ما احس به آنه ، انت اتظلين اهناه وآنه رايحه اودي ريوك الشيخ ،

كان الشيخ كسار لايخلف كلام ابنته آية الحكيمة ولايأكل الا من يدها كونها هي كبيرة العائلة وتقرأ وتكتب وحافظة سور من القرآن كثيرة كونها تتلمذت على يد ملا سويرة في المد ينة في تلك العهود ، خرجت من الغرفة وقفلتها على الفتاة ودخلت على العائلة وجلبت معها احدى النساء العاملات في بيت الشيخ وصلت الى المضيف وتناولت الطعام من المرأة ودخلت على ابيها وضعت الطعام وجلست تنظر اليه.

قال الشيخ :- اشوف بوجهك كلام غريب؟!

قالت آية: ايه بويه ،عندي حجي، رفع يده من الأكل واصغى اليها

وهي تتحد ث حول الفتاة،

قال : اتأكدتي من صدق هاي البنت ؟

قالت آيه :-ايه نعم تأكدت

قال الشيخ : انشا الله باجر ايصير خير

نهضت الحكيمة آية واتجهت بلهفة الى غرفتها فرحة استقبلتها الفتاة بلهفة وهي تبكي.

قالت آية :- افرحي خير انشا الله، باجر الشيخ يذهب الى اهلج وعنده خطة هو والسيد علوان وهي خطة انقاذ الج.

قالت حسنة :- اشلون خاله؟

قالت آيه:- هاي لاآنه ولاانت انعرفهه ، بس الشيخ اذا كال ايه ايخلصهه من حلك السبع،

قالت حسنة:- خاله الله ايطول عمرج وعمر الشيخ

قالت آية:- ياله اكلي اريوكك

حسنة:- والله ما اشتهي

قالت آية:- خاطر اتشربين جاي

حسنة :- لا بس جاي اشرب

قالت آية :- هسه محد يد ري بيج اهناه رايحه اقفل الغرفة عليج وخلي اكلج يمج. وآنه بين فترة اوفترة امر عليج.

حسنة:- خاله الله ايطول عمرج.

كان صباح اليوم الثاني هو يوم عمل للشيخ كسار فقد جمع مجموعة من كبار عشيرته في مقدمتهم سيد علوان وساروا الى القرية الثانية وصلوا عند الظهر ودخلوا بيت ابيها استقبلهم هو وأبناؤه وابناء اخيه وهم مسلحون وبعد ان جلسوا ووزعت عليهم القهوة نهض ابوها ليذهب الى داخل البيت لإعداد الطعام.

قال الشخ كسار:- لا أحنه جايين ابشغل. ونريده منك وهو طعامنه اذا رضيت.

قال ابوها مندهشاً:- كول يمحفوظ احنه حاضرين !

قال الشيخ كسار:- بنتك يبو عناد عندي

ارتبك الجميع وحركوا بنادقهم

استمر الشيخ كسار بحديثه ، وهي طاهرة وشريفة وعفيفة وكله هذا الصار اشاعة اومالهه اصل واللي نقلن هاي الإشاعة صاحباتهه الوياهه

قال الأبن الأكبر:- انكاوم اهلهن

رد الجميع :- بصوت عال ايه.

قال الشيخ :- اتخلوني احجي يوانكوم لهنه؟

قال ابوها:- فوت ابفالك يمحفوظ.

قال الشيخ:- هذا حجي نسوان احنه ما انشد عليه وهنه كارهات لبتكم وآنه اترك الحجي لسيد علوان/ اعتد ل سيد علوان

وقال: بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ مايرجع البنت الكم وجاي هسه يطلب ايدهه منكم لبنه سلمان هاه شتكولون؟!

قال عمها :- من رخصة الشيخ ابو سلمان احنه هم عدنه زلم واولاد عمهه اربعه اثنين متزوجين وثنين بعدهم والأقربون اولى بالمعروف.

الشيخ كسار:- والله حجيت الحك تستاهلونهه هاي الدرة الثمينة بس بشرط تنزف من بيتي وآنه الأزفهه بيدي

قال ابوعناد: هذا شرف النه يبوسلمان حطيتولي علو لشرفي جزاكم الله خير.

عادوا الى القرية وحد د يوم الزواج وزفت الفتاة من بيت الشيخ كسار وسط الهلاهل والأهازيج ودخلت بيت ابن عمها بسلام.